بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل البركات، وبتوفيقه تتحقق الغايات، وبتيسيره تزول العقبات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة،والنعمة المسداة، البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا، ومعلمنا الخير، وهادينا إلى الله، محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فهذا هو الجزء الخامس من هذه السلسلة المباركة (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام) التى تعالج قضايا فكرية متنوعة، أصولية وفقهية، وعقدية وعملية، مما يمكن أن يلتبس فيها السبيل، ويكثر القال والقيل، ويختلف الناس ما بين ميمنة وميسرة، وما بين مشرّقين ومغرّبين.

ونحن فى هذه السلسلة ندندن حول كلمات قوية مركزة للإمام الشهيد حسن البنا عليه رحمة الله ورضوانه، سماها (الأصول العشرين) وصاغها صياغة تتميز بالحكمة والاعتدال والرفق، وحرص فيها على أن يجمع ولا يفرق، وأن يقرب ولا يباعد بين أهل القبلة، وأبناء الملة.

وقد اقترح علىَّ بعض الأصدقاء المخلصين من أهل العلم: أن أفْصِلَ هذه الكتب عن (الأصول العشرين) لأن كثيرا من الناس سيتصورونها كتبا خاصة للإخوان المسلمين، وهم وحدهم الذين يقرأونها، وقال هذا الصديق: مع أنى تابعت الأجزاء الأربعة التى صدرت منها، فوجدت ما فيها من علم وتأصيل وفكر أصيل يحتاج إليه أبناء الأمة جميعا، سواء كانوا من الإخوان أم من غيرهم.

وقال هؤلاء الإخوة: إن اعتبار هذه السلسلة شرحا للأصول العشرين ظلم لها، فهى تشرح السطرين أو الثلاثة من كلام البنا بكتاب كامل، وما العلاقة بين الكتاب وبين الأصل الذى يتحدث حوله إلا كالعلاقة بين النواة والنخلة!

وأود أن أقول لهؤلاء الإخوة الفضلاء: إن عنوان هذه السلسلة يدل عليها، ويعرف بهدفها، فقد توجهت بها لكل العاملين فى ساحة الدعوة الإسلامية، والعمل الإسلامى من علماء ودعاة وجمعيات وجامعات ومؤسسات، فقد شغلنى هَمُّ الدعوة والدعاة، وهَمُّ الدين وتجديده، وهم الأمة وتغييرها من داخلها، وهمّ أعداء الأمة الذين يحاولون تعويق مسيرتها، وتمزيق وحدتها، وغفلة كثير من العاملين للإسلام عن كيد هؤلاء.

لقد أردت بهذه السلسلة أن أخاطب كل الغيورين على الإسلام، وكل المهتمين بشأن أمته، وإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، مجتهدا أن أزيل الجفوة بينهم، وأن أردم الفجوة التى تفصل بعضهم عن بعض، وأن أغرس الحُبَّ والتسامح فى قلوبهم بدل البغضاء والتعصب، فإن البغضاء هى الحالقة، لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين.

وأنا أربأ بإخوانى المعنيين من أهل العلم والدعوة: أن يعتبروا هذه الكتب للإخوان وحدهم، فما قصدت إلى هذا ولا أردته، بل الواقع أن حسن البنا قبل أن يكتب هذه الأصول للإخوان، كان قد تقدم بها لاتحاد الجمعيات الدينية فى مصر، التى وقع بينها من الخلاف والتجافى والتنادى إلى حد التراشق بتهم بالتفسيق والتكفير. فأراد بأصوله هذه أن تمثل الحد الأدنى الذى يجب أن يلتقى عليه كل من يعمل لنصرة الإسلام.

وفى هذه الأصول الأربعة التى تحدثنا حولها هنا، تعرضنا لقضايا فى غاية الأهمية والخطر:

(أ) مثل قضية تراث السلف وموقفنا منه، وكيف نقومه بميزان الكتاب والسنة.

(ب) ومثل قضية التمذهب والتقليد بين الموجبين له، حتى على أهل العلم، والمحرمين له حتى على العوام والأميين من العرب والعجم!

(ج) ومثل قضية الاختلاف الفقهى، وهل يؤدى إلى التفرق الدينى؟

وكيف نضبط هذا الاختلاف بالضوابط الشرعية العلمية، بحيث نؤسس ركائز لفقه الاختلاف، حتى يكون اختلاف تنوع وثراء، لا اختلاف صراع وتضاد.

(د) مثل قضية الجدل (البيزنطى) فى فرعيات الدين التى لا ينبنى عليها عمل، والتى تأكل الأوقات، وتنشئ الحزازات، وتفرق الجماعات.

ومن الناس من تضيق صدورهم بأى خلاف، مع أن من الخلاف ماهو ضرورة ورحمة وتوسعة للأمة، وما يكون ثروة حقوقية وفقهية لها، وما يتيح لها فرصة للانتقاء والترجيح.

ومن الناس من يعتبر رأيه أو رأى جماعته هو الصواب الذى لا يحتمل الخطأ، ورأى غيره هو الخطأ الذى لا يحتمل الصواب بحال، وقد ورثنا من السلف هذه الكلمة العادلة: رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب.

بقيت هنا كلمة لابد أن أقولها إحقاقا للحق:

إذا كان تراث أسلافنا العظام – فى مستواه البشرى – خاضعا للنقد، وليس فى ذاته قداسة ولا عصمة، فإن منطق العقول المستقلة يقول: إن تراث الآخرين سواء كان فى الغرب أم فى الشرق، أحق بالخضوع للنقد والتقويم من تراثنا الذى يتميز بصلته بالدين، واستظلاله بالوحى، وهذا ما لا يجوز أن يختلف فيه اثنان من العقلاء.

وإذا كنا ننكر تقليد أسلافنا من فقهاء الأمة الكبار، وأئمتها العظام، لأنهم فكروا واجتهدوا وأبدعوا لزمانهم لا لزماننا، ولبيئاتهم لا لبيئاتنا، فنحن – ولاشك – أشد إنكارا لتقليد آخر يشيع اليوم، ويراد له أن يهيمن على عقولنا، ويوجه حياتنا، وأن نخضع له أفكارنا وسلوكنا، ذلكم هو تقليد الغرب صاحب الحضارة المسيطرة على العالم بما فيها من نزعة مادية ظاهرة، ونزعة نفعية غالبة، وما تتضمنه فى غالب مدارسها الفلسفية، وتطبيقاتها العملية، من احتقار للغيبيات، وإهمال للقيم الروحية والأخلاقية، وتشجيع للتحلل والإباحية،

والتعامل بالمعايير المزدوجة، واعتبار الغرب هو سيد العالم، وأن حضارتهم أم الحضارات. لقد أثر الغرب فينا قديما عن طريق الاستعمار بأنواعه: السياسى والعسكرى والاقتصادى والتشريعى والثقافى، واليوم يغزونا عن طريق ما سموه (العولمة) وهى اسم جديد للاستعمار.

أقول: إن هذا التقليد الذى يراد فرضه علينا اليوم، لتحنى رؤوسنا لفكر الغرب وثقافته، وفلسفته وحضارته، والتخلى عن جذورنا الإيمانية والثقافية وهويتنا الحضارية، وخصائصنا الدينية والفكرية، لترتمى فى أحضانه، وتذوب فى حضارته، وتفنى فيها، كما عبر بعضهم من قديم – هذا التقليد مرفوض عندنا بلا نزاع، لأنه يمثل بالنسبة لنا اليوم اغترابا، كما يمثل تقليد الأسلاف اغترابا.

تقليد الأسلاف يعتبر اغترابا فى الزمان، وتقليد الغرب يعتبر اغترابا فى المكان.

والواجب أن نعيش فى زماننا ومكاننا، لا نغترب عن العصر، ولا نغترب عن الدار.

نريد أن نفكر لأنفسنا بعقولنا لا بعقول غيرنا، لانريد من أحد أن يفكر لنا، سواء كان من الأموات، الذين بيننا وبينهم قرون وقرون، أم من الأحياء الذين بيننا وبينهم بحار ووهاد.

على أن أسلافنا – وإن اغتربوا عنا زمانا – هم أقرب إلينا فكرا وشعورا، فمنطلقاتهم منطلقاتنا، وغاياتهم غاياتنا، ومناهجهم مناهجنا، ولكنهم لم يحيوا حياتنا، ولم يعيشوا مشاكلنا، ولم يواجهوا تحدياتنا، ولم يعرفوا ما عرفنا فى عصرنا.

أما الغربيون فهم أكثر بعدا منا، لأن منطلقاتهم ليست منطلقاتنا، وغاياتهم غير غاياتنا، ومناهجهم ليست مناهجنا. فتقليدنا لهم أشد نكرا.

ورجائى من إخوانى العاملين للإسلام – أيا كانت المدرسة التى ينتمون إليها – أن يقرأوا كتابى هذا بروح الأخوة الإسلامية، لا بروح العصبية الجاهلية، فما أنا إلا واحد منهم، يسرنى ما يسرهم، ويسوءنى ما يسوءهم، وما أردت والله إلا الخير

لهم ولهذا الدين، ولا أدعى العصمة لما كتبت، ولا أزعم أنى أعلم من أحد، فأنا لا أزال أطلب العلم، وسأظل أطلبه – بتوفيق الله تعالى – مادامت لى عين تقرأ، وأذن تسمع، وعقل يعى، موقنا بقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[الإسراء: ٨٥].

وداعيا الله جل شأنه بما أمر خاتم رسله أن يدعو به ربه حين قال: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾[طه: ١١٤].

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾[البقرة: ٢٨٦].

الدوحة فى ربيع الأول ١٤٢٢هـ — الفقير إليه تعالى

يونيو (حزيران) ٢٠٠١م — **يوسف القرضاوى**